

أ.د. فاروق عمر فوزي
باحث عراقي مقيم في الأردن
farouk92014@yahoo.com

دور المهالبة في المشرق الإسلامي خلال العصر الأموي ٤١-١٣٢ هجري / ٦٦١-٧٥٠ ميلادي؛ المهلب بن أبي صفرة نموذجا.

موضوع البحث يتعلق بأل المهلب بن أبي صفرة في المشرق الإسلامي، ودورهم في العصر الأموي بالدرجة الأولى، والعصر العباسي أيضا؛ فقد ظهرت شخصيات كثيرة من المهالبة، رغم أنهم تعرضوا لتلك الحادثة المأساوية في زمن يزيد الثاني الخليفة الأموي -يزيد بن عبد الملك- الذي استأصلهم في البصرة وفي مناطق أخرى. ورغم هروب قسم إلى بلاد السند بعد مقتل يزيد المهلبي، إلا أن الجيش الأموي لحقهم إلى هناك وقتل الكثير منهم، فكان هذا جزاء المهالبة لدورهم الكبير والتميز والمبدع.

عندما نتبع مكونات الدولة الأموية والعراق مسرعا للأحداث المهمة آنذاك، فإنني أعدُّ -بكل اطمئنان- آل المهلب صانعي التاريخ في العصر الأموي؛ فلولا هؤلاء المهالبة لقضي على الدولة الأموية وهي في مهدها. إذ أنه وكما هو معلوم لكل من لديه إمام -ولو بشكل بسيط- بالتاريخ أن الدولة الأموية قد تعرضت بعد الفترة السفانية ومقتل أو وفاة معاوية الثاني إلى فتنة كبيرة، أكلت الأخضر واليابس خلال عامي ٦٤ و ٦٥ للهجرة؛ إذ لم يبق شيء في بلاد الشام، وما أشبه الليلة بالبارحة! ولك أن تتصور المشهد السياسي المتوتر في العراق وقتذاك؛ فقد انقسم العرب إلى أقسام عدة: منهم من هو موال للمروانيين، العائلة الثانية لبني أمية، وقسم آخر موال لعبد الله بن الزبير في الحجاز. كما أن الولايات الإسلامية انقسمت على نفسها بين موال للمروانيين، وبين موال لعبد الله بن الزبير، الذي كان من نصيبه الحجاز والعراق، ذلكما الإقليمان المعارضان بشده للأمويين.

ولكن المفارقة الكبيرة في هذه القضية أن بلاد الشام انقسمت كذلك على نفسها؛

فوجد أن شيوخ القبائل اليمانية، وشيوخ القبائل القيسية، وشيوخ القبائل الربعية قد انقسموا بين مؤيد مروان بن الحكم ومعارض له، ومعروف أن مروان بن الحكم هذا مؤسس الأسرة المروانية، وقد اصطحح المؤرخون على تلقيبه بأبي الأسرة المروانية. إذن، لم يبقَ أحد من بلاد الشام، أو بالأحرى من أجناد بلاد الشام؛ لأنها كانت مقسمة إلى أجناد لا إلى ولايات. وهذا التقسيم كان معروفاً من العهد البيزنطي القديم. وقد ظلت بلاد الشام كذلك، إلا أن هذه الأجناد كانت موالية للمروانيين ولمروان بن الحكم، واتسع النطاق ليشمل جند فلسطين. وفي الوقت نفسه نجد أن جميع الأجناد الأخرى في بلاد الشام قد والت عبد الله بن الزبير في الحجاز؛ بالرغم من أنه لم يكن كفواً في هذه المهمة، ولم يستطع في الحقيقة كسب حروبه؛ مما جعل المفارقة بينه وبين المهلب بن أبي صفرة كبيرة. كما أنه كان بخيلاً لدرجة أنه لم يعط أنصاره وأتباعه الكثير حسبما تذكر المصادر؛ ولذلك فقد الكثير منهم؛ بل أن كبار القادة العسكريين الأمويين في الجيش الأموي طالبوه بالهجرة إلى بلاد الشام لتصيبه خليفة، لكنه تردد في ذلك! وبذلك خسر المعركة في العراق كما هو معروف، وخسر في عمر داره في الحجاز، وقُتل في نهاية الأمر. وكذلك قُتل أخوه مصعب بن الزبير في معركة قوية في العراق قادها الخليفة عبد الملك بن مروان نفسه.

هذه هي صورة العالم الإسلامي في تلك الفترة، صورة تجسد واقعاً لا تحسد عليه الدولة الإسلامية التي تعاني فرقة كبيرة جداً، ونزاعاً بين الأقاليم الأخرى، وصراعات على السلطة. ولكن، مما يمكن ذكره في هذا السياق أن مروان بن الحكم استطاع أن يخرج من هذه المعمة ويعلن نفسه خليفة على بلاد الشام، ثم استمرت العائلة الأموية في الحكم.

وأما بالنسبة للمهالبة، وعلى رأسهم المهلب بن أبي صفرة، فقد أبدعوا، وكانوا بالفعل رجال المهمات الصعبة، ولولا وجودهم لما بقيت الدولة الأموية. وهذه حقيقة يجب ذكرها عند الحديث عن الأدوار المهمة التي قام بها المهلب وأولاده منذ زمن معاوية بن أبي سفيان إلى وقت وفاته في زمن عبد الملك بن مروان، تحديداً في سنة ٨٢ هجرية؛ ففي المجال العسكري، تتمثل الأدوار المهمة في العديد من الفتوحات

الحاسمة التي انطلقت من البصرة، التي قام بها المهلب ومن معه من أزد عُمان المقيمين في البصرة، ومعهم المقاتلة الآخرون من النواحي الأخرى؛ إذ قادهم إلى المشرق الإسلامي بدافع الفتوحات وتوسيع رقعة الدولة الإسلامية.

إن مزيداً من التأمل في موضوع انطلاق الفتوحات بقيادة المهلب بن أبي صفرة من البصرة يعطينا جرعة كافية من الاطمئنان عن الدور الحضاري للبصرة وقتذاك؛ إذ مهمتها كانت بمثابة قاعدة إدارية وعسكرية منذ عصر الخليفة عمر بن الخطاب إلى العصر الأموي. وقد أنيط لهذه القاعدة العسكرية مهمة فتح خراسان وأقاليم المشرق. وكانت المهام العملية موزعة بين البصرة والكوفة باعتبار كل واحدة منهما قاعدة عسكرية متقدمة. ثم بنيت مدينة واسط، الواقعة بين البصرة والكوفة، في وقت لاحق، وتحديدًا في زمن الحجاج بن يوسف الثقفي؛ ولذلك سميت واسط. وفي الحقيقة أن الأمويين كانوا لا يريدون أن يخلطوا مقاتلة بلاد الشام بالمقاتلين الآخرين؛ بسبب الخوف عليهم من إفسادهم في تغلغل النزعات السياسية والدينية بين مقاتلة الشام؛ فتم استحداث قاعدة عسكرية للجنود القادمين من بلاد الشام في مدينة واسط في زمن الخليفة عبد الملك بن مروان.

لقد بدأ المهلب عملياته العسكرية في زمن الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق؛ إذ تميز في بداية شبابه بالاشتراك مع أبيه في العمليات العسكرية في المشرق. وبعد وفاة أبيه، رغم أنه كان من أصغر أبناء أبي صفرة، بدأ نجمه يظهر إلى المعالي. ولا ريب أن هذه البداية المهمة مكنت المهلب من التزود بالدروس المفيدة في مسيرته القيادية، وشكّلت شخصيته السياسية والإدارية والعسكرية.

ومن أبرز السمات التي تميّز الخط السياسي الذي سار عليه المهلب أنه لم يكن يتدخل في الفتن التي تظهر بين القبائل؛ بل كان دائماً يجعل نفسه وأولاده وجماعته من الأزد في معزل عن كل ما يمكن أن يؤثر سلباً على حياته واستقرار جماعته. وفي الحقيقة، إن المتابع للنهج السياسي للمهلب يستطيع بكل سهولة الوقوف على حرصه البالغ في اجتناب تلك الفتن، رغم الأحداث الجسيمة التي عصفت بالدولة الإسلامية آنذاك. ففي أثناء الحرب الأهلية التي تسمى في المصطلح الإسلامي بـ (الفتنة) والتي وقعت في بلاد الشام، نجد عدم ورود ذكر للمهلب في أدبيات الفتنة؛

لأنه، كما أسلفنا، قد عزل نفسه عن الخوض فيها، وانزوى إلى البصرة حيث جماعته الأزدي، وذلك بخلاف ما مضت عليه أغلب القبائل العربية إن لم يكن كلها. فإذا ما أجلنا النظر في قبائل بلاد الشام والحجاز والعراق، نجد أنها انقسمت إلى فئتين رئيسيتين: فئة مع عبد الله بن الزبير، وأخرى مع الأمويين، والمهلب بن صفرة مبتعداً عن التحزب لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، متجنباً الفتنة التي لا تبقى ولا تذر.

وهناك ملمح لا ينبغي لمن يرصد الفتوحات الإسلامية التي تميزت بها هذه المرحلة الدقيقة من مراحل التاريخ الإسلامي إغفاله، وهي أن أغلب الفتوحات قد أسندت إلى المهلب في سبيل توسع الدولة كانت إلى جهة المشرق تحديداً. فبما يركز كيف كان المهلب يتعامل مع المهمات العسكرية التي تسند إليه؟ لقد كان يقوم بما يوكل إليه من مهام عسكرية وأوامر تتعلق بالفتوحات الإسلامية بكل تقان وإخلاص. والجدير بالملاحظة كذلك، أن المهلب بعد أن ينهي تلك المهام يعود إلى قاعدته (البصرة) دون أن يتصرف بأكثر مما هو مطلوب منه، ودائماً يعود إليها ظافراً دون أدنى خسائر. وظل كذلك في جميع مهماته وفتوحاته؛ حتى تشكلت صورته في أذهان البصريين عموماً والأزدي خصوصاً بأنه القائد الفذ الذي يحقق أهدافه بأعلى مستويات النصر وأدنى مستويات الخسائر في الأفراد والممتلكات؛ الأمر الذي جعل أهل البصرة يستجدون به لتخليصهم من الخوارج الأزارقة بعد ذلك؛ لدرجة أنهم - وعلى إثر ذلك - سمّوا البصرة، بكل فخر، ببصرة المهلب.

إن شخصية فذة من القيادات العسكرية المحترفة كالمهلب بن أبي صفرة، لم تكن لتغيب عن دائرة الاهتمام الرسمي للدولة الأموية؛ فكان الولاة والقادة الأمويون يولون المهلب جزءاً كبيراً من اهتماماتهم، ويسندون إليه المهام الجسيمة التي تحتاج إلى أداء احترافي إن صح التعبير. وظلت نظرة الخلفاء والولاة الأمويين للمهلب نظرة إعجاب بالقدرات القيادية والإدارية التي يمتلكها في الشؤون السياسية، وفي إدارة الدولة، وكذلك في شؤون السلم والحرب على حد سواء. واستمرت تلك النظرة إلى عهد عبد الملك بن مروان الذي ينصفه الكثير من المؤرخين، فيعدونه أفضل خلفاء بني أمية إدراكاً وإدارة لشؤون الحكم؛ بما تميّز به من معرفة بالرجال واختيار الأكفأ منهم، والاعتماد عليهم، وجعل الرجل

المناسب في المكان المناسب له. فحينما انتهى عبد الملك بن مروان من مصعب بن الزبير وأخذ منه العراق، اعتمد على واليه الحجاج بن يوسف الثقفي، وعلى المهلب بن أبي صفرة، بل وأوصى الحجاج بأن يعتمد على المهلب ويجعله مستشاراً عسكرياً وسياسياً، وذلك لم يرض الحجاج؛ لأنه كان مغامراً وصاحب طبيعة مغرورة. ولذلك، فإن الكثير من الروايات تحدثت عن هذه العلاقة بين المهلب بن أبي صفرة والحجاج، وأظهرت جوانب الشد والجذب بينهما، في عدم استقرار العلاقة بينهما. ولكن المهلب كان متزناً في مواقفه، كما أنه كان دائماً يتجنب الفتنة، مع التزامه التام بتنفيذ ما تمليه عليه الإدارة الشرعية للدولة الأموية من مسؤوليات إدارية وقيادية.

وكان عبد الملك بن مروان يدرك تلك الخصائص الفذة في شخصية المهلب؛ بل إنه من دقة معرفته به كان يدرك متى يتحين المهلب الفرص للتدخل في فض الانشقاقات وإخماد الثورات التي تحصل بين الفترة والأخرى كثورة الأزارقة، على سبيل المثال. ومعروف عن الأزارقة التطرف وغاية العنف، وانشقاقهم عن الإسلام الحنيف؛ فلا وجود عندهم للتسامح والاعتدال والتعايش مع الآخر، ولا يفهمون الإسلام كما تفهمه الفرق الإسلامية الأخرى؛ فليس لديهم إلا القتل والنهب والمغامرة والفتنة وشق عصا المسلمين. فهؤلاء هم الأزارقة، وهذه صفاتهم بقيادة زعيمهم نافع بن الأزرق؛ لمن لا يعرفهم. وقد استمر الأزارقة في هذا النهج يكفرون المسلمين، ولا يرضون بالتعايش معهم؛ بل ويجيزون قتلهم، ويقولون بعدم التزاوج معهم، وعدم توريثهم. ثم أنهم انقسموا إلى عدة فرق بين أزارقة ونجدات وصفرية؛ مما سبب ضعفهم، وكل واحد من زعامات هذه الفرق قد اقتسم أقاليم مختلفة من جسد الدولة الإسلامية. فمثلاً أخذ الأزارقة أقاليم من المشرق الإسلامي، مثل الأحواز وإقليم فارس وخراسان وجرجان وسيطروا عليها. وأخذ النجدات اليمامة والبحرين. وبالمناسبة؛ فإن أغلب الساحل الغربي للخليج العربي كان يسمى ولاية البحرين، ولم يكتفوا بذلك؛ بل بدأوا يتوغلون نحو عُمان في هذه الفترة التاريخية. وأما الصفرية فقد كان مجال نشاطهم في الجزيرة الفراتية شمال العراق والموصل وأذربيجان.

وأمام هذه الحركات الخارجية الانفصالية والثورات المتتالية، كانت مهمة المهلب بن أبي صفرة صعبة؛ فعليه أن يجتث الأزارقة ويستأصلهم قبل أن يتوفى في زمن الخليفة عبد الملك بن مروان. غير أن هناك معضلةً أخرى تتمثل في وجود الحجاج الذي ما فتئ يحسد المهلب، ويكيل له الاتهامات لدى الخليفة عبد الملك بن مروان. وفي المقابل، لم يكن عبد الملك يأبه لما يقوله الحجاج عن المهلب، بل استمر يؤكد على بقاء المهلب بن أبي صفرة في المهمات العسكرية الصعبة، والمهمات السياسية العويصة، بالإضافة إلى مهام إدارية أخرى أنجزها بكل كفاءة. فكفاءة المهلب هي التي حملت الخلفاء الأمويين على مكافأته بعد كل معركة ينتصر فيها - وبالمناسبة، فقد انتصر فيها كلها - ولم تسجل عليه أي هزيمة. فقد كافأ الخلفاء الأمويون المهلب بتوليته على البصرة وخرسان في وقت واحد، ولا ريب أن لكل من هاتين الولايتين أهمية خاصة في الدولة الأموية وما بعدها. ولم يكن تكريم المهلب من خلفاء بني أمية يرضي الحجاج بطبيعة الحال؛ فضلاً عن مشاركته في النفوذ والسلطة.

ولقد ازدادت درجة حساسية الحجاج من المهلب بعد أن تمكن المهلب من القضاء على المختار بن أبي عبيد الثقفي في الكوفة. ومما كان يؤجج نار الحقد في قلب الحجاج على المهلب أن الجميع من أمراء وعامة، كان معجباً بالمهلب، وكانوا يرون أنه مغامرٌ وسياسيٌّ من الدرجة الأولى؛ فضلاً عن كونه من أشرف القبائل العربية، كما أن أفراد أسرته كلهم كانوا قادة مثل يزيد بن المهلب والمغيرة بن المهلب. وهناك روايات تقول أن المهلب قبل وفاته كان يريد أن يستخلف عليه ابنه المغيرة، ولكن المغيرة توفى قبله بأشهر، وحزن عليه حزناً شديداً. ويأتي وراءه يزيد المهلبي، والكل يعرف ما حدث ليزيد المهلبي وأسرته مع الخليفة يزيد بن عبد الملك، الذي كان يتصرف كطفل ليس له في أمور الإدارة والسياسية أي دراية، وهو أول وآخر منصب له في زمن الدولة الأموية.

وعموماً، لم تنته أدوار أسرة المهالبة أو آل المهلب السياسية والإصلاحية والاجتماعية والإدارية والعسكرية بوفاة المهلب بن أبي صفرة؛ إنما ظل إشعاعهم مضيئاً داخل العراق وخارجها، مروراً ببلاد ما وراء النهر شرقاً، وشمال إفريقيا غرباً، وصولاً لأرض الجزيرة العربية وعمان.